مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد08 العدد: 02 جـــوان (2024) ص65/ 74

التفكير الأنطولوجي عند نزار قباني قصيدة "كتاب الحب" أنموذجا

The Ontological thinking of Nizar Qabbani, the poem "The Book of Love" as a model

سارة سكيو*

جامعة الحاج لخضر باتنة

مخبر الموسوعة الجزائرية

الميسرة(الجزائر)

sarah.sekkiou@univ-batna.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
29/ 06 /2022
تاريخ القبول:
05/ 06 /2024

الكلمات المفتاحية:
- ✓ نزار قباني
- ✓ الحب
- ✓ الفلسفة

الملخص:

تروم أفكار هذه الورقة البحثية حول توضيح التفكير الأنطولوجي عند شاعر الكيان الأنثوي نزار قباني، والذي لطالما وسم توجهه الشعري وشاعريته صوب المرأة وجعلها تلعب دور البطولة في معظم دواوينه الإبداعية، وما سنخصص الحديث عنه في هذه الدراسة هو قراءة تأثير زوجته بلقيس على مدارية وجوده كشاعر غزلي ورجل محب للنساء في العموم، حيث من خلال قصيدة "كتاب الحب" سنحاول تبيان موقع زوجته من وجوده ككل، والتي بقدر ما كان يغازلها شعريا كان يغيبها شخصيا ووجوديا من دون قصد منه ذلك لغلبة الحب والشعور المستكين على ذاتية الشاعر.

Article info

Received
29/06/2022
Accepted
05/06/2024

Abstract :

The ideas of this research paper aim to clarify the ontological thinking of the poet of the feminine entity, Nizar Qabbani, who has always characterized his poetic orientation and poetic towards women and made

* المؤلف المرسل

them play a starring role in most of his creative books. And a man who loves women in general, as through the poem "The Book of Love" we will try to show the position of his wife in his existence as a whole, who, as much as he was courting her poetically, he was missing her personally and existentially.

Keywords:
- ✓ *Nizar Qabbani*
- ✓ *The love*
- ✓ *philosophy*

. مقدمة:

يتعلق مفهوم الوجود بكثير من التعبيرات والفنون الإنسانية، والشعر أحدها فهو مرآة تعكس جوهر الشاعر الذي يعاني في خضم دفقات انفعالية ووجدانية لحظة إنتاجه وتجليته لأثره الشعري؛ حيث يعبر هذا الأخير كثيرا عن أطيافه السيكولوجية وبصمته كفرد موجود له كيان خاص به، ونزار قباني من الشعراء الذي كان لحضورهم في العصر الحديث صدى واسع المدى في الساحة الشعرية خاصة وأنه رجل قد مرّ بعديد من مراحل الحب المختلفة، هذا الذي دفعنا للتساؤل كيف كان الفكر الأنطولوجي عنده؟ وما الذي تغير فيه كرجل وشاعر تحديدا في قصيدة كتاب الحب؟ والحضور الأنثوي ما محله هنا من الإعراب؟ هذا الذي سنحاول مقاربته من خلال قراءة الوعي الأنطولوجي الذي أسقطه نزار قباني في هذه القصيدة الموجهة خصيصا لزوجته بلقيس، حيث يندرج هذا الأثر الشعري ضمن القصائد التي نظمها الشاعر في مرحلة تشبعه الشعري ونضجه الفكري، فمن خلال الأبيات الشعرية التي اخترناها من هذه المدونة الجمالية سنحاول العروج على الحيز الأنطولوجي لشاعر المرأة وما تأثير وجودية بلقيس على حياة نزار قباني ومساره الشعري ككل.

2.الأنطولوجيا والوجود الكياني لنزار قباني

1.2 مفهوم الأنطولوجيا ودورها:

لكل فن أو علم في كثير من الحالات ركائز فلسفية يرتكز عليها، ويتخذ من قوانينها وأسسها طريقا ينتهجه، والشعر فن من الآثار الإنسانية التي من خلالها يعبر الإنسان عن كثير من أفكاره ويحاكي واقعه الباطني من مشاعر وأحاسيس وعديد من ألوان الانفعالات النفسية، وتعد الأنطولوجيا أحد ألمع الفلسفات التي كان لها صدى واسع المدى؛ في تفسير ومعالجة القضايا البشرية فهي كغيرها من الاتجاهات الفكرية الميتافيزيقية تبحث في عالم الإبداع الإنساني وما يحيط به و "تعني مذهب الكينونة ...وهي اليوم شائعة جدا، تذهب في مواجهة فلسفة كانط، وضد فكر لوثر **luther**، وبشكل أساسي ضد كل مساءلة مفتوحة لا تخشى مواجهة نتائجها المحتملة، فهي محفز لثورة ضد الفلسفة كما هي عليه... فهي تحدد مساءلة وتعيينا موجهين للكينونة بما هي عليه، بأية كينونة يتعلق الأمر وكيف نقاربها" (هيدغر، 2015، صفحة 26) فلنركز على مصطلح الثورة هنا، تحديدا نصب اهتمامنا حول معنى الأنطولوجيا **ontologish**، فهي ببساطة تتعلق بموضوع الاهتمام بالوجود، أي التجسد الفعلي من حضور وماهية، وكما نعلم أنه في الهيرمينوطيقا القديمة خاصة منها تلك التي كانت تحت سلطة الكنيسة قد حدت نوعا ما امكانياتها وآفاقها حيث كانت تقريبا ضد كل تفكير يدعوا للتحرر والاحساس بالوجود الذاتي، واستمر الوضع على شاكلته إلى أن ظهرت الفلسفة الوجودية، فالأنطولوجيا تتعلق بماهية الحضور ومقاربته، ونستطيع الإشارة إلى مفهوم الوجود بما يمكن في أمرين حيث يشير المعنى لأول: أن مفهوم الوجود يدخل ضمن المفاهيم التصورية البديهية، بمعنى هذا أنه من المفاهيم التي تركز في النفس ارتكازا أوليا، ولا يحتاج العقل من تصوره وفهمه إلى توسط مفهوم ثان(زريق و بن عومر، 2018، صفحة 314) أي أننا في مماس الحديث عن نمطية النفس وما ينبثق منها من معالجات انفعالية ونفسية وجدانية، فالوجود هنا سيكولوجي وجدا روحي وبهذا لا ينفي ارتباطه بالعنصر المادي، أما المعنى

الثاني فحده يقول أن أي معرف لابد أن يعرف بإحدى الكليات الخمس(الجنس، النوع، الفصل النوعي، الخاصة، العرض العام) والوجود ليس يعرف بأي واحدة من هذه الكليات، فلا جنس له ولا فصل ولا نوع ولا عرض ولا خاصة، وبالتالي لا يمكن تعريف الوجود فهو اعرف المفاهيم (زريق و بن عومر، 2018، صفحة 314) وبما أننا في سياق الحديث عن الشعر فنأخذ بعين الاعتبار العمل بالتعريف الأول للوجود الذي نقصد به في اطارنا هنا الأنطولوجيا، فالإبداع الشعري محصلة النفس، ونتيجة لتقلباتها خاصة عاطفية المبدع ومزاجه.

يقودنا الحديث في اطار الشعر والفلسفة، إلى نظرة أرسطو لهذه الثنائية، ولنشر أولا اننا نتحدث عن الشعر باعتباره تعبيرا فنيا، و أرسطو قد نظر إلى الفن الجميل على أنه محاكاة لعمل الطبيعة، لكنه ليس تقليدا أعمى له، بل هو محاولة من جانب الفنان للوصول إلى الصورة الكلية لاستكمال عمل الطبيعة بشكل مجاوز لها، ومن هذا المنطلق ذهب إلى أن الفنان ينبغي عليه أن يؤثر دائما المستحيل المحتمل على الممكن غير المحتمل ويجب ألا تؤلف القصة من أحداث غير ممكنة، بل يجب أن يستبعد منها كل ما هو غير ممكن(سليمان، 2009، صفحة 116) لأن فعل المحاكاة وفعاليتها عند أرسطو بل هدفه من الفعل والإبداعات الأدبية ككل يتمايز عما جاء به أفلاطون، فليس الفن في قراءته أن يحاكي الطبيعة كما هي نحو ما تكونه، لا بالعكس تمام فهو يرى أن الأمر أعمق من ذلك بكثير، فعلى الفن أن يذهب بالواقع والحقيقة لما يجب أن تكون عليه أي افضل بكثير، وفي خضم كلامنا عن نظرة أرسطو للشعراء نعلم أن هذا الأخير هو رائد فكرة التطهير الكاتارسيس، التي تفيد بأن الأثر الفني أدبا كان أو أي جنس جمالي ابداعي هدفه تنقية النفس واستجلاء كل الرواسب النفسية التي تؤرق الانسان سواء المتلقي أو المبدع وتخليصه من الآثار السلبية لهذه المشاعر والأفكار السلبية؛ حيث ينجلي على اثر هذه العملية ارتياح كبير وخلاص روحي معنوي يلعب على حبل العاطفة خاصة شعور الشفقة والاحساس بالخوف، ثم إن الشعر ليس معرفة عقلانية، ليس نسقا برهانيا سرعان ما تتداعى بنيته النظرية الجافة لتحل محلها أخرى، إنه حدس رؤيوي، اكتشاف للوجود في عذريته، مراودة دائمة وانتهاك للغز الخلق، استشراف للماهية والكينونة، تماس مع الزمان والمكان لا مجرد طواف بهما (يوسف، 2016، صفحة 49) تمام الأمر أن الشعر تعبير عن وجدان الروح، ينبع من ذاتية الشاعر نتيجة لعدة عمليات سيكولوجية لا شعورية وأحيانا إدراكية، والتي لا يمكنه السيطرة عليها في الغالب، وهو أيضا ذلك الفن الذي يأخذ من حيز الزمان والمكان ويردفهما كعاملين بل مصدريين أساسيين لتوليد تلك الطاقة الإبداعية.

2.2 تشظي الأنا في الحب القباني

أ كل شاعر موسوم بخصائص وسمات تخصه وحده وتؤثر على طبيعة الفعالية الانفعالية التي تراوده لحظة تجسيده لأعماله الأدبية، ونزار قباني لطالما عرف باقتحام الحب والمرأة لعالمه منذ استهلالاته الفنية فهي مصدر الهامه الشعري وصاحبته في عيش رونق الحياة، فهي المدار الرئيسي لمعظم قصائده وبطبيعة الحال حضور العنصر الأنثوي في حياة الشاعر لك يكن هكذا اعتباطيا أو وليد الصدفة فهو ليس بشاعر تحدث عن امرأة ما أثارت انتباهه ثم مرّ لأغراض أخرى، بل هو نمط حياة عاشه نزار قباني مستمتعا فيه بكل ما يتعلق بالنساء عامة وما جذبه وأحسه من هيامه مع زوجته بلقيس ونشير إلى أن طبيعة العلاقة بين الشاعر و النساء كان لها جذور مديدة العمق منذ طفولته، فهو ان صح التعبير رجل أنطولوجي الحب، شاعر حسي النظم، وجدا دونجواني التعامل أتقن الحديث والتحاور مع المرأة وفهمها بل ذهب به المطاف إلى تقديسها، ونجد من هذه القدسية تشبيهها بمقدسات العالم الموت/ الحياة والتي يشير اليها بالولادة حيث يقول (قباني، 1970، صفحة 13):

حبك يا عميقة العينين

تطرف

تصوف

عبادة

حبك مثل الموت والولادة

صعب بأن يعاد مرتين

يزاحم عالم الحب والمشاعر الايروسية عند الشاعر، عالم الحقيقة والوجود فهو يتحدث عن هذا الحب الذي هو واقع تحت سلطانه كأنه ضرورة حتمية، لا مفرّ منها ويستكين لها محببا لذاته هذا الفعل لدرجة أن ذاتيته تنصهر -على نحو ما- مع هذا القالب الرومانتيكي، تمام الأمر نلاحظه في قوله(قباني، 1970، صفحة 8):

يا. رب قلبي لم يعد كافيا

لأن من أحبها.. تعادل الدنيا

فضع بصدري واحدا غيره

يكون في مساحة الدنيا

لو ندقق في بصمة نزار قباني في هذا المقطع الشعري القصير للاحظنا تسارع حالته النفسية، تماما هذا الذي ينعكس طرديا وحالته الشعرية، فهو يدون أثره الإبداعي على نحو جد سريع لكن مستكين في نفس اللحظة كيف لا وهو يصرح بحجم الإحساس والشعور الذي يحسه في هذه اللحظة بالذات وكأن الأمر صار خارجا عن نطاق سيطرته، ووجوده كرجل صار في صراع مع هذا الحب، صراح لامس أنطولوجية شخصيته، ويستمر المقام الانفعالي الوجداني به بيقول (قباني، 1970، صفحة 8):

مازلت تسألني عن عيد ميلادي

سجل لديك إذن.. ما أنت تجهله

تاريخ حبك لي.. تاريخ ميلادي

لقد تغيرت الحالة ووصلت بنزار قباني إلى أن يقرن وربط تاريخ ميلاده الذي في الأساس يمثل هويته الوجودية كشخص له ماهية وحضور مادي، بالزمن الحسي الذي صادفه منذ ظهور هذا النوع من الحب في حياته، ونعلم يقينا أن الشاعر عاش الكثير من مغامرات الهيام في حياته وسجلها في كثير من صفحات دواوينه الشعرية، فلماذا يخصُّ هذا الحب لبلقيس بالذات ويجعله أساسه وجوده؟ ذكرنا آنفا أن الأنطولوجيا هي دراسة مفاهيم الوجود، أي هي دراسة الوجود وأسسه وطبيعته وحقيقته...ومن شأنها البحث في إمكانية هل الموجود هو محمول؟ هل الجمل التي تتحدث عن وجود شيء أو عدم وجوده تدعى قضايا؟(فرحة، 2010، صفحة 54) فنحن هنا بصدد البحث عن فكرة إن فعلا أصبح حضور الشاعر مرتبطا بوجود هذا الحب وطبيعته، فنزار قباني في كتاب الحب يصرح بالأمر وليس لديه أدنى تأني في التصريح بذلك، فمرة أخرى من خلال الأبيات الشعرية نرصد كيف أنه مستسلم لهذا الشعور وكأن ذاته وكيانه يتمايز هنه ويتشظى مقابل عيش مثل هكذا انفعال وجداني وحتى مادي، ويردف قصيدته ويقول(قباني، 1970، صفحة 8):

لو خرج المارد من قمقمه

وقال لي: لبيك

دقيقة واحدة لديك

تختار فيها كل ما تريده

من قطع الياقوت والزمرد

لاخترت عينيك.. بلا تردد..

سارة سكيو

عند توجيه زاوية نظرنا لواقع الأمر الشعري للاحظنا وجود منظورين، الأول هو أن ما يحدث مع صاحب الأثر الشعري هو ازمة نفسية وجودية؛ حيث صار لا يحس بأن له حضورا فعليا له قيمة وشأن إلا بوجود حبيبته بلقيس وما تجعله يعيش من فوضى في المشاعر، أي أنه تحت سيطرة الحب ويمر بمراحل الاستكانة فيمن ألم وعذاب وخضوع..

أما المنظور الثاني للموضوع هو أن ما يحدث للشاهر أمر فطري وغريزي بامتياز، فالانا خاصته في حالة صراع مع جانبه الليبيدي، أي أن ما يحركه في هذه الفترة غريزة الايروس الجنسية ومبدأ اللذة فلا ضرر من أن يجعل وجوده خافتا ومتأزما نظرا لما سيظفر به من متعة واحتياج غريزي سيكولوجي، بالإضافة على هذا تعكس شخصية نزار بوضوح أثر العوامل التي ذكرها علماء النفس كمحددات للشخصية، الوراثية والبيئية والثقافية والاجتماعية وعوامل الحالة الخاصة... فالعوامل الوراثية هي السمات التي يكتسبها الفرد عن طريق العملية الجينية، وتتمثل في التكوين الجسماني والانعكاسات اللاإرادية والدوافع الداخلية والذكاءو المزاجية أو الحساسيةتحدد طبيعة استجابة الفرد للمؤثر واندفاعه، وكذلك قدرته على التعلم وتركيبته العاطفية (علي، 1998، صفحة 20) إن كل هذه المؤثرات الخارجية تؤثر على كيان نزار قباني وتحركه، فطبيعة البيئة التي يعيش فيها والظروف الخارجية من حوله جعلته يشعر بهذا الحب لبلقيس ويهتم بها دون غيرها لأنها محصلة وخاتمة هذه العوامل فلو اختل عامل واحد فقط منها لكان الوضع مختلفا ولوجدنا نظار قباني كرجل وكشاعر له كيانه ووجوده المطبوع على التعدد يتباين عن هذا الوضع الذي هو فيه الآن فهي عوامل حقيقية فعلا، لها قابلية تحريك مجريات إحساس الشاعر وحياته، وكما نعلم أن الشعر انعكاس لما يدور ف خلد الشاعر حيث يعبر عن كل هذا لا شعوريا في لحظة صادقة يزيح بها عن مكبوتاته بيد أن الأمر هنا حقيقي والشاعر على قدر كاف من الوعي ليؤكد حقيقة ما يمر به قائلا(قباني، 1970، صفحة 10):

عدي على أصابع اليدين، ما يأتي

فأولا: حبيبتي أنت

وثانيا: حبيبتي أنت

وثالثا: حبيبتي أنت

ورابعا وخامسا

وسادسا وسابعا

وعاشرا.. حبيبتي أنت..

فلنقل أن هذا النوع من التأكيد هنا يرتبط كثيرا بنزعة التملك إن لم نوجهه صوب عقدة التملك، ونرجسية الشاعر، الذي كأنه يجاهر للعلن على أن هذه المرأة بالذات حبيبته هنا وتخصه وحده، فبالعودة للحديث عن نمط الحياة التي عاشها نزار قباني وطبيعة الظروف المادية التي ترعرع في كنفها كيف أنها كانت جيدة ومكنته في التطرق لأبواب الفن والشعر لما استغربنا موقفه هنا في احتكار وجودية بلقيس ككل له دون سواه، فأي أمر هو هذا معنوي ومادي يجعله يؤكد للمرة العاشرة أنها حبيته وليس أي امرأة أخرى، أيضا إن لكل عامل من العوامل -السابق ذكرها- أثر والذي لا ينكر في تكوين شخصية نزار الفنية وتحديد مذهبه الشعري، كذلك قد يكون لبعض العوامل العامة أثرها في ذلك، فالحديث عن العصر الذي عاش فيه نزار وسماته المادية وهيمنة الجوانب الحسية في تصوير الجمال، خاصة جمال المرأة، على الجوانب المعنوية قد يبرر اتجاه نزار إلى الغزل الصريح ولكنه لا يبرر بلوغ تلك الدرجة التي وصلها من الفحش (علي، 1998، صفحة 21) الذي قد نفسره بالعقد الجنسية المعروفة، تماما عقدة أوديب لكن لنتمعن في قصيدة الحب ككل لوجدنا أن الألفاظ التي يستعملها الشاعر ليس تلك التي يغلو فيها طبع الفحش وذكر المفاتن الحسية، ليست كذلك هذه القصيدة مقارنة بالقصائد الأخرى لنزار قباني لهذا ركزنا على الفكر الأنطولوجي عنده في هذا الأثر الشعري الذي نلحظ فيه تغيرا واضحا في

تصرفات الشاعر الذي يبدو كأنه مستعد لفعل أي شيء لإرضاء هذه المرأة التي نذكّر مرة أخرى أنها زوجته بلقيس التي صار يرى الدنيا فيها وبها هنا ندرك حجم المساحة التي احتلتها هذه المرأة في حياة الشاعر.

3. ماهية المرأة من كتاب الحب بين الحضور والتغييب

1.3بلقيس ومرحلة الاستكانة:

نسم بين أبيات القصيدة أن لسان حال المحبوبة يأتي على شاكلة ما يشعر به نزار قباني تجاهها، فهي عملية إسقاط منه نحوها بمعنى أنه يسقط عليها تلك الأدوار التي يحب تقمصها في لعبة الحب هذه، بل حتى الانفعالات التعبيرية لحبيبته بلقيس هو الذي يتحكم فيها، مما يجعلنا نفتح باب التساؤل حول وضعية المرأة في مدار القصيدة ان كان لها حضور فعلي تفرض به سيطرتها على الشاعر أم هي الحاضرة الغائبة ووجودها لا يتعدى تلك السيطرة اللفظية والمادية التي يقررها نزار قباني في الإبداع الشعري حسب مزاجه ورغباته؟ فلنركز فيما يقول(قباني، 1970، صفحة 20):

إني أحبك عندما تبكينا

وأحب وجهك غائما وحزينا

الحزن يصهرنا معا ويذيبنا

من حيث لا أدري ولا تدرينا

تلك الدموع الهاميات أحبها

وأحب خلف سقوطها تشرينا

بعض النساء وجوههن جميلة

وتصير أجمل.. عندما يبكينا

نحن أمام معادلة للحب والتي يحدد طريقة توازنها نزار قباني وزوجته بلقيس وهي برأينا غير متوازنة في فترات ما من زاوية ومنظور الوجود كوجود للشخص بذاته وكيانه، فحضور الحبيبة هنا صار بطريقة ما حسب ما يراه الشاعر لا يتعلق فقط بذاتها أو حتى ماهيتها كامرأة بل كشخص حاضر، على النقيض تمام هو الحال في هذا المقطع فهي مرتبطة بما يرغب به نزار زما يريده منها فصار يجعل كل شيء من حوله أنثويا بلمساته هو الخاصة لا بما تحدثه أنوثة المرأة في الأصل ثم ان انحياز نزار قباني للمرأة جعله ينحاز أيضا للمكان ويؤنثه، بل إن هذا الانحياز جعله ينظر إلى العالم كله على أنه أنثى مؤيدا ما ذهب إليه ابن عربي في أن المكان غير المؤنث لا يعول عليه مؤكدا أنه حيث يكون الذكور تكون الأرض مالحة ويحل الجفاف...(حيدوش، 2001، صفحة 136) ربما قد غالى نزار قباني كثيرا في التحدث نيابة عن المرأة لدرجة جعل من وجودها أمرا غير مهم في الأساس وكأنها لا تملك من القدرة والسلطة الشخصية ما يسمح لها للتعبير عن ذاتها ومشاعرها وما تريده هي لا ما يقول هو عنها، ولنقل أن كثيرا ما يحرك نزار قباني الشاعر هو سلطة الرغبة الايروسية التي لها باع كبير في تحريكه كرجل فهو يقصي بالفعل صوت المرأة هنا ولا يعطيها في هذا المشهد الشعري سوى دور الحبيبة لا المرأة التي تحب، فقد جعل حزن المرأة مصدر لذته وسببا في اغتباطه الحسي ذاكرا كم تكون النساء جميلات جدا عندما تهمل دموعهن، ونحن في الشعر القديم كثيرا ما جرت العادة أن تنحب المرأة لجمالها وسرورها خاصة ابتسامتها التي لطالما تغزّل بها الشعراء نظرا لأنها دليل على حب المرأة وأنها فعلا تشعر بالفرح والحب ولها رأي تعبر عنه، فنزار قباني كلامه هنا لم يقتصر فقط على زوجته بلقيس بل هو موجه لكثير من النساء اللاتي حسب منظوره وذوقه الخاص يراهن أكثر جمالا وهن تعيسات باكيات، ولعلنا لا نستغرب هذا التهميش الذي وجهه الشاعر للحضور الأنثوي الفعلي فهذه القصيدة كتبت في المرحلة التي صنفت في حياته على انها مرحلة الارتواء والانطواء، أي انه قد بلغ هذه الفترة من حياته الاكتمال النفسي و الجنسي لتفكير صوب

سارة سكيو

المرأة فهو ليس في البدايات التي تكون معظمها استكانة عذاب ومحاولة ابهار للأنثى لا بل صار في مرحلة الاكتفاء الذاتي فصار يقصيها ويتحدث نيابة عنها، ثم إن نرجسية نزار القباني في حدود تعامله مع النساء كانت تؤثر على كثير من تصرفاته الاجتماعية، وتجعله يحيد -نوعا ما- نحو مبدأ اللذة ويبتعد عن مبدا الألم الذي يفرضه الواقع وهذا الأخير نفسه يؤكد وجود المرأة كشخصية لها كيانها وذاتها وليست فقط مجرد حدث أنثوي لا يملك صوتا خاصا به سوى أنه مصدر لنزوات الرجل، هذا الذي قد يمكننا من قول أن حبه للنساء لم يكن من أجلهن بقدر ما كان لأجله، فهو كان يحب هذا الإحساس وما يتبعه من تضخم في الأنا عنده كيف لا وهو الذي يصرح بأنه(قباني، 1970، الصفحات 19-20):

حين أكون عاشقا

أصبح ضوءا سائلا

لا تستطيع العين أن تراني

وتصبح الاشعار في دفاتري

حقول ميموزا وأقوان

حين أكون عاشقا

تنفجر المياة من أصابعي

وينبت العشب على لساني

حين أكون عاشقا

أغدو زمانا خارج الزمان

فهذا الإحساس الذي يشعره بالنزعة الذاتية، يستقيه من تلك المتعة التي تقترن بالمرأة، وكثرة تعاملها معها واتقانه لأسلوب الحوار الذي يجذبها، صار من المسلمات القبانية التي بفضلها استطاع أن يتسامى بأفكاره ونزواته، بل صار يفتخر بهذا علنا وبحديثنا عن الحب فهنا قد نركز في الرغبة، والرغبة فقط، فهي التي تعمل حينئذ في إطار الحب الذي يعلن نفسه، فإن هذا الإعلان حتى لو يظل خفيا، هو الذي ينتج ثار الرغبة وليس الرغبة مباشرة، إذ يرغب الحب في أن يغلف الرغبة، وبالتالي تصبح طقوس الجسد التعبير المادي للكلمة...ولكن الحب لا يمكن أن يكون مجرد رداء للرغبة الجنسية، أو خدعة معقدة أسطورية لضمان بقاء النوع (باديو و ترونج، 2014، صفحة 71)إن التعلق شعور يحتاج إلى ثنائيتين والتي عادة ما تتمثل في الرجل/المرأة فكلاهما لديه من الوجود المادي والوجداني ما يحقق معادلة الحب، فلا يمكن الاستغناء عن عنصر دون آخر ولا يمكن أن نقصي وجود ما تلعبه المرأة في هذا الإطار فالحب خبرة اثنين ومشروع وجودي من خبرة الاندماج المخلص داخل الفكرة فالرغبة الأنانية ليست حبا ! فمن الضروري أن نصبح غير أنفسنا لكي نحب هاهنا نقيض لقانون الرغبة في حد ذاته، ضرورة نزع فردية الأنانية باسم الفكرة؛ فكرة أن نعيش منذ الآن فصاعدا اثنان... اذن ذات الحب ليس هو أو هي، بل ذلك الذي يتجاوزهما في نحن (باديو و ترونج، 2014، صفحة 128) فلو حصرنا أنطولوجيا الحب كتفكير موجود يحتاج من الشاعر أن يبث إحساسا معينا فبالضرورة أن يكون للمرأة حضور تحدده هي وليس نمط هذه المشاعر فقط، صحيح أن الغريزة هي المحرك الأساسي للرغبة الجسدية التي لطالما كان لها بصمة في علاقة الرجل والمرأة ولكننا أمام قصيدة يملأها الشعف بالشخص الآخر فقد كان نوار قباني يستطيع ذكر محطاته الغرامية مع بلقيس ويكتفي لإرضاء رغبته بها بوصف جسدها وجمالها فقط، لكنه ذهب بالأمر هنا إلى ما هو أبعد من ذلك كأنه منصهر بطريقة ما مع حبيبته وصار يتحدث نيابة عنها وفي نفس الوقت يذكر ما تجعله يحسه ويطمح إليه، ونعم الرغبة دون أي شك موجودة بين ثنايا هذه الابيات الشعرية لكن ما يميزها أنها رغبة متجددة لا تنتهي فقط بانتهاء قضاء وقت مع بلقيس أو نيل منها ما يريده

الشاعر، هذا الذي يجعل نزار قباني هنا واقعا في حب حبيبته لدرجة أنه يعيد إحياء هذه المشاعر نحوها في كل مقطع من مقاطع الأثر الشعرين ويستمر بالإفصاح عما يدور في خلده بكل وضوح فيقول(قباني، 1970، الصفحات 21-22):

أخطأت يا صديقتي بفهمي..

فما أعاني عقدة

ولا أنا أوديب في غرائزي وحلمي

لكن كل امرأة أحببتها

أردت أن تكون لي

حبيبتي وأمي

من كل قلبي اشتهي

لو تصبحين أمي..

إن الشاعر في هذه الأبيات يجعل كيان المرأة ذات حضور ويغيبها في نفس اللحظة، فمناداتها بالصديقة يحيلنا إلى المكانة التي تختلها بلقيس في حياة نزار قباني فالصديق عادة ما يكون وجوده فعليا في حياة الشخص وندا له في الوجود، وفجأة يغيبها حين يذكر جمع النساء وأنه أحب الكثيرات ولطالما أراد منهن إعطاءه ذلك الشعور الذي كان يصدر من لدن والدته، والملاحظ أنه متناقض فيما يريده بل فيما يقول فمرة يصرح بأنه ليس من الذين يحملون عقدة أوديب معهم لكنه في الحب يريد من المرأة ما كان يريده من والدته، إنه من التحايل النفسي واللفظي الذي يقوم به شاعر ذكي كثير الخبرة مع النساء، وحيلته هنا تعتمد على الإقناع النفسي العكسي، فهو يصارح بلقيس بل يخبرها بالأفكار التي قد تفكر فيها هي وما تريده أنه يفكر هو، فيجزيها بمكانة أول امرأة في حياته وهي والدته وهذا شائع بين الشعراء الذين تسيطر عليهم أفكارهم الجنسية وعقدة أوديب ولن نستغرب هذا في الحب ففي نهاية المطاف، أيسر على المرء أن يكون محبوبا من أن يحب، وينتهي المرء، وحصر الحاجة إلى أن يكون محبوبا يلاحقه، إلى أن يفعل كل شيء ليحصل على هذا الحب مع احتمال أن يتجرد من شخصيته (داكو، 1983، صفحة 388) لذلك نلحظ تمايزا في حضور الشاعر وحتى حضور المرأة في القصيدة وأيهما يطغى وجوده على الآخر، فالشاعر أحيانا في محل الصدارة لكنه لا يفتأ يلعب دور المحب المحتاج والمطيع وفي ذات السياق حين تحضر ذات الحبيبة يجعلها بشكل ما مقترنة بوجوده هو.

حيلة أخرى تجعل من وجود المرأة مسيرا من لدن نزار قباني في قصيدة كتاب الحب، مجاهرته بعبثه مع العديدات ولكنه فطن لإيجابيات هذه الصراحة والتفاخر بعلاقاته فينطلق من العام إلى الخاص في كلامه قائلا(قباني، 1970، صفحة 22):

جميع ما قالوه عني.. صحيح

جميع ما قالوه عن سمعتي

في العشق والنساء. قول صحيح

لكنهم لم يعرفوا أنني

أنزف في حبك مثل المسيح

ففي البداية هو يفتخر بما يشاع عنه من كلام تدركه جيدا بلقيس، كيف أنه كثير العلاقات مطلوب من العديدات ثم يغير مسار الحديث بسرعة، نحو حبيبته فيخصها بمكانة رمزية بل يقرنها بصورة المرأة المسيطرة فهي المعذبة وال مخلصة، وأنه بسبب حبها كثير الأوجاع ولا يستطيع أن يتعافى من هذا الحب النازف، نزار قباني يصور لنا مشهدا خالدا لا نهاية له وتأكيدا على تقلب وجوده بسبب أنطولوجيا بلقيس كامرأة يكمل قائلا(قباني، 1970، الصفحات 22-23):

يحدث أحيانا أن أبكي

مثل الأطفال بلا سبب
يحدث أن أسأم من عينيك الطيبتين
بلا سبب..
يحدث أن اتعب من كلماتي..
من أوراقي.. من كتبي
يحدث أن اتعب من تعبي..

سيكولوجية نزار قباني وهو ينظم هذه الأبيات مستمدة من لحظة إبداعية تحركه فوضى انفعالية بين الاستمرارية و بين الضجر والسأم، فهو في نطاق عاطفي رغما عنه لا يريد اكماله ولا يستطيع النأي عنه، فكما نعلم أن تقلبات النفس عديدة تغير تياراتها الشعورية يغير سلوك الشاعر حتى تجعله يكره ما يريد، ولكن ما يجمعه ببلقيس هو أكبر من مجرد علاقة جسدية يقصيها ويمر، فهي كما عرفت به قد كانت امرأة قوية الشخصية من النوع الذي لا يرضخ بسهولة وحتى زواجها من نزار قباني لم يجسد على أرض الواقع إلا بعد تخطي كثير من الصعوبات التي لطالما حالت بينهما، ولأن الشاعر حاول فرض كيانه ووجوده في صفحات القصيدة غير أن بصمة حبيبته وتأثيرها كان كفيلا بجعله يتخلى عن تجسده كرجل ذو سلطة على الحضور الأنثوي فحينما تحضر هي يستسلم ويرضخ لحبها وليس له من الأمر شيء سوى الاستمتاع بهذه الاستكانة بالكلام الآتي(قباني، 1970، صفحة 23):

عيناك مثل الليلة الماطرة
مراكبي غارقة فيها..
كتاباتي منسية فيها..
ان المرايا ما لها ذاكرة..

نستطيع أن ننتصر لوجودية المرأة هنا، فالشاعر في حالة سكون وضياع بسبب ما يتولد من مشاعر حب تجعله يثمل ويغرق بل حتى أنه ينسى من أي وإلى أين هي الوجهة، وذكره للمرآة هنا ربما يقصد به أنه في هذه اللحظات بجوار بلقيس هو مجرد انعكاس لها فحين تغيب هي تنكسر صورته في المرآة فلا يصير له أي ذكرى تخصه هو وحده.

4. خاتمة:

صفوة القول فيما تم التطرق إليه من أفكار آنفة هو أن الأنطولوجيا لا تتعلق بالفلسفة فقط بل تبحث في علم الوجود ككل، أي البحث فيما يجعل من حضور الانسان فعليا ومجسدا على أرض الواقع، ونزار قباني قد تمكن من تجسيد وجوده وذاتيته في كثير من أبياته الشعرية في قصيدة كتاب الحب إذ دمج فيها بين حضوره كمبدع ورجل في ذات اللحظة ونفس الإطار الفكري.

أن رؤية نزار قباني وموقفه تجاه الحضور الأنثوي قد تغير -نوعا ما- في قصيدة كتاب الحب عما كان عليه في سابق أعماله الفنية، ذلك أن المرأة التي يخاطبها ويحاورها من خلال أبيات القصيدة هي زوجته الفعلية بلقيس والتي تركت بصمتها الأنطولوجية أثرا بليغا في فكر الشاعر.

أن انصهار نزار قباني مع امتداد حبيبته على مدار مراحل القصيدة أمر لا مناص منه، فقد ارتبط معها وجدانيا وجسديا هذا الذي جعل تفكيره الوجودي مقترنا بها طوال الوقت.

أن الشاعر قد مر بالعديد بالمحطات الحياتية والتي غيرت من طريقة تفكيره، وقصيدة كتاب الحب من تلك الآثار الشعرية التي تحمل أطياف نزار قباني الوجداني أثناء تغييره من نمط حبه ورؤيته للوجود ككل سواء وجوده هو كرجل أو للمرأة

كحبيبة أو أي دور آخر تلعبه في الحياة، فزوجته التي هي أساس هذه المقاطع الشعرية التي اخترناها لها سبق التغيير الجذري الذي حول تفكير الشاعر من العام إلى الخاص، والذي صار يحيد لحب التملك متمسكا بأنانية الحضور حتر صار يتحدث نيابة عن حبيبته لهذا نأمل أن تلقى هذه القصيدة فتوحات فكرية ومقاربات عديدة من قبل الباحثين نظرا للظواهر اللغوية و الخاصية الاسلوبية التي تميزها كقصيدة من الشعر الحر مازج فيها الشاعر كوكبة من الظواهر الفنية والجمالية.

5. قائمة المراجع: طريقة (APA)

1. باديو,آ& .,ترونج ,ن .**(2014)** .*في مدح الحب* .**(éd. 1)**مصر، القاهرة :دار التنوير للطباعة والنشر.
2. حيدوش,أ .**(2001)** .*شعرية المرأة وأنوثة القصيدة في شعر نزار قباني*.دمشق :منشورات اتحاد الكتاب العرب.
3. داكو,ب .**(1983)** .*المرأة بحث في سيكولوجية الأعماق***)** .و .أسعد **(Trad.** ,دمشق :منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
4. رياض بن يوسف. (2016). الشعر والنسق الأنطولوجي. *مجلة الموقف الأدبي* (537)، 49.
5. زريق,ر& .,بن عومر ,ز .**(2018)** .في مفهوم الوجود وتطبيقاته في فلسفة صدر الدين الشيرازي .*مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية*.**314 ,(35)**
6. سليمان,ج .أ .**(2009)** .*أنطولوجيا الوجود ايمانويل كانط*.دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
7. علي,ن .خ .**(1998)** .*نزار قباني شاعر المرأة والسياسة*.مكتبة مدبولى.
8. فرحة,م .**(2010)** .الأنطولوجيا النشأة والتطور والنضج .*مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية*.**54 ,(4)** *32* ,
9. قباني,ن .**(1970)** .*كتاب الحب*.بيروت :منشورات نزار قباني.
10. مارتن هيدغر. (2015). *الأنطولوجيا هرمينوطيقاالواقعانية* (الإصدار 1). (عمارة الناصر، المترجمون) بغاد / بيروت: منشورات الجمل.